شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء النصرانية في عهد الدولة العباسية (تابع)

للاب لويس شيخو اليسوعي

٣٣ القس يعقوب المارداني

كان يعقوب المارداني احد قسوس اليعاقبة السريان ذكره الشيخ المؤتمن ابو اسحاق ابن عسّال في جدول كتبة النصارى الذي قدّمهُ على كتابهِ اصول الدين (ص ٢٨ من نسخة مكتبتنا الشرقيّة) روى اسمهُ بعد يحيى بن عديّ وعيسى بن زُرعة ويحيى بن جرير (ويقال جرير) فقال: «القس الفاضل يعقوب المارداني صاحب دعوة القسوس»

أمّا دعوة القسوس هذه فعلى ما يظهر كتابٌ ادبي روى فيهِ المؤلف اخباراً ادبيّة تروى لقسوس النصرانيّة. وقد جاء في طبقات الاطبّاء لابن ابي اصيبعة (١ : ٢٤٣) انَّ ابن بطلان الذي سبق لنا ذكرهُ هو صاحب دعوة القسوس والمشهور انهُ صاحب دعوة الاطباء كما اثبتنا هناك. والقس يعقوب هذا كان من تبعة البدعة اليعقوبيّة. امّا نسبتهُ «المارداني» فاراد بها «ماردين» مدينة الجزيرة الشهيرة وكان الصواب ان يُنسب اليها «المارديني» فرواها على صورة شاعت على ألسنة بعض العامّة

وكنّا أيسنا من اكتشاف شيء من كتاب دعوة القسوس حتى السنة ١٩٠٤ اذ اطّلعنا في دار المرحوم الوجيه بشاره يارد على مخطوطات قديمة مخرومة كان من جملتها كرّاس من قطع صغير طولهُ ١٨ سنتمترًا في عرض ٢١ س ذي ورق صفيق متجعّد تقدمهِ ينقص اوّلهُ ويبلغ ١١٣ صفحة وفي الصفحة ٢٢ سطرًا كُتب بخطّ نسخي ناعم ومتقن بحبرين اسود واحمر يرتقي الى القرن الثامن عشر. وهو مجموع شعر قديم لشعراء مسلمين بينهم بعض النصارى. ففي الصفحة ١٠٣ منهُ فصلٌ عنوانهُ «ومما وُجد من القصائد والاشعار الخمريّة» ذكر فيهِ بعض الخمريّات متزوعاً

عن الخمرة المادّية المذكر الخمرة الالهية في سرّ النصرانية ببنها قطع اخذها من كتاب دعوة القدوس قال (ص ١٠٥): هذه خمريّة من كتاب دعوة القدوس (من الوافر):

أعادَ بنعمة الربِّ المسيحِ علينا بذلك الخمرِ المليحِ
لقد غفلتْ خطوبُ الدهرِ عنّا وقد ظمئت الى الصهباء روحي
وقد حضرتْ ومن تهوى فبادرْ وورّ جوانحي بدم الذبيحِ
فلو كانت حراماً ما أبيحتْ لمن يختارُ شربَ دمِ المسيحِ
ولا داوى بها ربُّ البرايا بليّةَ آدمَ الملقى الجريحِ
ولا أوصى الرسولُ بها جهاراً وحلّلَ شربها أمرُ الذبيحِ (١
فإن بادرتَ لفزتَ بكل شكرٍ وحصّلتَ السرورَ مع المديحِ
وإن أخرتَ دعوتنا لمعنًى أبالمذر القبيحِ أم المليحِ؟
وتطمعُ بالزيارةِ بعد وقتٍ لتمحو ما سطرتَ من القبيحِ
تجدنا كالمخدّرِ في سرورٍ وانت ببابنا مثلَ الطريحِ

(قال) وله ايضاً في معناه (من الطويل):

أيا مَن غدا ذخري لكلّ مُلمّةٍ تُلِمُّ ولا زيدٌ سواهُ ولا عَمْرو
هلمَّ الى الراحِ التي كان صانعها لنادون كلّ الخلق في دنّها العُمْر (٢
فبادرْ فما اللذّاتُ إلّا غنيمةٌ فشمّرْ اليها قبل ان ينفدَ العُمْرُ

وله ايضاً فيها وقد احسن وصف اسرارها (من الكامل):

شمّرْ ذيولَكَ في عُرى الزنّارِ واعجلْ الى دَنِّ طُلي بالقارِ

---

١) اراد بالرسول القديس بولس. والذبيح والمليح ومن الربانية مكسًا هو بعناه
٢) العُمْر الكنيسة والدير وبذكره يتضح انهُ اراد الخمر المقدّسة والقربان

فلقَدْ تَحَجَّرَ طِينُهُ في رأسهِ من كثرة الايّامِ والأعمارِ
واكشفْ تجدْ شمس الضُّحَى محجوبةً في جُنْحِ لَيْلِ القارِ والغبّارِ
قالوا : القارُ ولو أضاءَ لقولهم مقدارُها ما سُمِّيَتْ بقارِ
نورٌ يفوقُ سناءَ كلَّ طريفةٍ من ساطع الأضواء والانوارِ
سرٌّ يُسِيرُ بهِ الى تبّاعهِ نورُ العقولِ وكاشفُ الأضرارِ
قد قُلتُ لمّا أبرزَتْ في كأسها : تَنْسَ الذي باع الضيا بغُبارِ
مالوا الى الدينار قلتُ : عُدِمْتُمُ أدَمُ المسيحِ يُباعُ بالدينارِ ؟
قد كان قبلَهُمُ يهوذا بائعاً دمَهُ بنَزْرِ النَّزْرِ للكُفّارِ

وهو ايضاً القائل لله دَرُّهُ (من الكامل) :

نورٌ بكفّكَ ام شِهابُ النارِ جَمْرٌ تضرَّمَ ام نُضارٌ جاري
شمسُ الضُّحَى في الكأس أم فَجْرٌ م تبسَّمَ صُبْحُهُ من تحت ليلِ القارِ
هذي التي مزَجَ المخلّصُ كأسَها في يوم عيد الفِصْحِ للأطهارِ
هذي التي جَلَتْ بها انوارُها عن سائر الاشجارِ والأثمارِ
صفراءُ لكن حُمْرَةٌ في خدّها من لَطْمِ أخمصِ أزْجلِ العصّارِ
لمّا رمَتْ عنها الكثيفَ تمكّنَتْ وتلاعبَتْ بلطائف الأفكارِ
وكذا النفوسُ اذا رمَتْ شهواتِها قَوِيَتْ لِعِلْمِ غوامضِ الاسرارِ

ومن محاسن شعرهِ فيها ايضاً قولهُ (من الطويل) :

أمِطْ عن سناها الخَتْمَ طالَ بها العُمْرُ فما صانَها إلّا لأربابها العُمْرُ(١

(١) سبق انّ العُمْر الكنيسة والدير

فقد جئتها يا راهبَ الدير خاطباً ... لها راغباً فيها وان كثُرَ المُهرُ
فقال : أُريدُ المُهرَ تِبرًا فانّما ... لتُرجعَ صِفرَ الكفِّ ان ظَهَرَ الصُفرُ
فقُلتُ : إذَنْ قُمْ للعُقارِ مبادرًا ... فكَيِّلْ لهم تِبرًا وكَيِّلْ لنا خَمرًا
فقال : يُباعُ الوَقفُ لا الخمرُ خَمرَنا ... فقد رذلتْ سَلْماً يقوم بهِ التِبرُ
فقلتُ لهُ : خبِّرْ حقيقةَ أمرِها ... لقد بان لي من سرّ اتوارها خُبرُ
فقال : هي الراحُ المسيحيَّةُ التي ... جَلا امرَها ربّي كما اشتَهرَ الأمرُ
تناوَلَها سِمعانُ ثمَّ تداولَتْ ... يمرُّ بها عصرٌ ويُدرِكها عَصرُ
الى أن وجدنا في المذابح من سَنا ... تَجوهُرِها سِرًّا فبانَ لنا السِرُّ
فكان لها خِدرُ الدِّنان فأصبَحَتْ ... براحاتنا تُجلى وكاساتُنا الخِدرُ
اذا أُترِعَتْ في كأسها او تَشعشَعَتْ ... يُخالُ بها جَمرٌ وليس بها جمرُ
مُشعشَعة يزهو على البدر نورُها ... كأنَّ سناها في جبينك يا بَدرُ
معطَّرةٌ أعطافُها فكأنّها ... استُعير لها من طيبِ أعطافها النَّشرُ

وقال ايضاً (من البسيط) :

هذه هي الراحُ لا شبهٌ تجوهرها ... ولا يُماثِلُها باللُطفِ مشروبُ
قد قال سيّدنا والكأسُ في يدهِ : ... هذا دمي خلاص الخَلقِ مسكوبُ

فترى ما بين هذه الخمريّات وخمريّة ابي الحفص الصوفي الشهير بابن الفارض من الشبه . ويعقوب الماردائي معاصر لابن الفارض فلا يبعد انَّ احدهما اخذ عن الآخر او جاراهُ في اقوالهِ . وهذه بعض ابيات للفارض يمكن عرضها على اقوال صاحب دعوة القدس

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل ان يُخلقَ الكرمُ

لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يُديرها هلالٌ وكم يبدو اذا مُزِجَت نجم
فإن ذُكِرَتْ في الحيّ أصبحَ أهلُهُ نُشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
فلو نفَحوا منها ثرى قبرِ ميّتٍ لعادت اليهِ الروحُ وانتشَرَ الجسمُ
ولو قرَّبوا من حائطٍ مُهدَّمٍ شَظى وتَنطِقُ من ذِكري مَدَاقَتِها البُكْمُ
يقولون لي: صِفْها فأنت بوَصفِها خبيرٌ، أجَلْ عندي باوصافها علمُ
صَفَاءٌ ولا ماءٌ ولُطفٌ ولا هوًا ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ
تقدَّمَ كلَّ الكائناتِ حديثُها قديمًا ولا شكلٌ هناك ولا رَسمُ
وقامَتْ بها الاشياءُ ثمَّ لِحِكْمَةٍ بها احتَجَبَتْ عن كلِّ مَنْ لا لهُ فَهْمُ
وهامَتْ بها روحي بحيثُ تغازَجا م اتحادًا ولا جِرمٌ تحلَّلَهُ جِرمُ
ولا قبلَها قبلٌ ولا بَعْدَ بَعْدَها وقَبلِيَّةُ الأبادِ فيها لها حَتْمُ
وقالوا: شَرِبْتَ الإثمَ. كلَّا وانما شربتُ التي في تَرْكِها عندي الإثمُ
هنيئًا لاهل الدير كم سكروا بها وما شَربوا منها ولكنهم نَمُّوا
على نفسهِ فَلْيَبْكِ من ضاعَ عمرهُ وليس لهُ فيها نَصيبٌ ولا سَهْمُ

فلعمري انَّ الشبهَ ظاهر بين اقوال الفارضي وصاحب دعوة القدوس وعلى رأينا انهُ هو اخذ عن يعقوب المارداني اقوالهُ فكساها ديباجاً فاخرًا يستطيع النصارى ان يحوّلوا معانيهُ الى سرٍّ طالما ذاقوا حلاوتهُ الالهي وحُرِمَهُ من لا يُدرك اعظم عطايا الله للعالم اي سرّ محبتهِ في القربان الاقدس

٣٤ يحيى بن ماري

﴿ نسبهُ ودينهُ زمانهُ ﴾ ورد ذكرهُ في تاريخ الحكماء لجمال الدين القفطي (ص ٣٦٠ــ٣٦١) وفي مختصر خريدة القصر في شعراء العصر لعلي المعروف برضائي زاده المتوفى سنة ١٠٣٩هـ ــ١٦٢٩م) (Ms de Berlin. 7412 pp. 64) وفي مختصر تاريخ الدول لابن العبري (ص ٤١٦) قالوا: هو ابو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراني المتطبب المعروف بالسيحي. والمرجح انهُ كان نسطوري النحلة. واصلهُ من الطيب بالدقيق بين واسط وخوزستان من موضع يقال لهُ الدُّوَير وكان ابوهُ قد انتقل من الدوير الى البصرة وانولد ولدهُ هذا بها. قال جمال الدين: كان ابن ماري عالمًا

بالطب وكان يطبّ في مدينة البصرة في زماننا وكان عالماً ايضاً بالادب ادرَكنا مَن روى عنهُ فيهن ادركناهُ ابو حامد محمّد بن محمّد بن حامد بن الّلة الاصفهانيّ العماد رحمهُ الله. وتوفي ابو العبّاس يحيى بن سعيد بالبصرة لعشر بقين من شهر رمضان سنة ٥٨٩هـ(١١٩٣م)

﴿ ادبهُ وشعرهُ ﴾ جاء في مختصر خريدة القصر عن العماد الاصفهانيّ قال: «كان لابي العبّاس معرفة بالادب وقد عمل ستين مقالةً على منوال المقامات الحريريّة ورأيتُها معهُ وما قصّر فيها» وقال جمال الدين القفطي: وكان للمسيحيّ هذا معرفة بالادب صادقة وربّما امتدح بالشعر اجلّاء الواردين على البصرة. وانشأ وصنّف المقامات الستّين صنّفها واحسن فيها وكان فاضلًا في علوم الاوائل وعلم العربيّة والشعر يرتزق بالطب». وذكر الحاج خليفة مقاماته (H.Kh., VI, p. 65, n° 12721) قال: «المقامات المسيحيّة لابي العبّاس يحيى بن سعيد بن ماري النصرانيّ البصري الطبيب المتوفّى في رمضان سنة ٥٨٩ نسج فيها على منوال مقامات الحريريّ. قال ياقوت: اجاد فيها. قال الصفدي: ما اجاد ولا قارَبَ الإجادة. والمقامات الجزريّة والمقامات التنيسيّة خيرٌ منها وما قارَبَتا الحريريّ»

(قلنا) اننا اطّلعنا في مكتبة ڤينّا عاصمة النمسة (Flugel: Die arab. Handschriften I, 358, Ms 384) على مجموعة مقامات في عدد سبع وعشرين مقامة نُسبت لابن ماري المذكور وانتسخنا قسماً منها اوّلها المقامة الفقيهيّة ثمّ الرومية ثمّ الشعريّة وآخرها المرْجيّة. ثمّ اطّلعنا في بغداد في كانون الاوّل سنة ١٨٩٥ على نسخة أخرى قديمة كاملة من المقامات المسيحيّة في خزانة كتب الحيدرخانة لم يسمح لنا قصر الزمان بنقلها وانّما نقل منها حضرة الاب انستاس الكرملي مقدّمتها ومقامتها الاولى المعروفة بالرهاويّة فنشرناها في المشرق (٣[١٩٠٠]: ٥٩١ــ٥٩٨). وقد قابلنا بين نسختي ڤينّا وبغداد فرأينا بينهما اختلافاً كبيرًا ليس في عدد المقامات فقط بل في انشائها. فالمقدّمة في كليتهما تختلف اختلافاً تامًّا وكذلك يختلف الراوي والمرويّ عنهُ في المقامات فانّ في نسخة بغداد يدعى راوي المقامات يحيى بن سلّام وفي نسخة ڤينّا اسمهُ ابو الخير بن الحارث يروي عن ابي الفضل. وقد ارتبنا في نسبة هذه النسخة الى

ابن ماري لأنّ في مقدّمته يذكر نبيّ الاسلام ويصلّي عليه على خلاف عادة النصارى وعلى خلاف ما ورد في نسخة بغداد ودونك قطعةً من مقدّمة نسخة فينّا

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهمّ على ما بأنّتنا من البلاغة ، وسوّغتَ لنا من الصناعة والصياغة ، وعلى ما ألهمتنا من اتيان البديع ، والبُيان الرفيع ، وعلى ما ذلّلتَ لنا من جوامح الشوارد ، ودلّيتنا (كذا) عليه من لوائح الفوائد ، وما ارشفتنا به من سوافح الموارد ، واشرفتنا عليه من سفح المقاصد ، ونشكرك على ما علّمتنا من نوابغ الحِكَم ، ونعّمتنا به من سوابغ النِعَم ، ونصلّي على أفصح من نطق بالضاد والذال ، ومن هو الى الخير هادٍ وعلى الحقّ دالّ ، سيّدنا محمّد الذي اخمد الضلال ، بأحمدِ الخصال ، وعلى سائر صحبه والآل ، ما طلع هلالٌ وما آل . وبعدُ فانّ المقامات الحريريّة اشهر من أن تُذكر ، واكبر من ان تُكبّر ، وقد حازت قصب السبق في مضمار البلاغة البالغة ، وكانت فيها البصائر والابصار فهي ما بين رائنة وزائنة ، لان الحريري ادهش كلّ ناسج على منواله ، وحيّر كلّ عامر في مسالك مقاله ، حيث اخترع واستوعب ، واقترح واستصوب ، وقد كلّفني مَنْ لا أُلقي ردّهُ ، ولا استطيع صدّهُ ، ان اقفو اثرهُ ، واتلو خبرهُ ، ليتورق لي في روض القراس عودٌ ، ويُشرق لي في افق الكمال سعودٌ ، لعمري انهُ تكليفٌ ما لا يُطاق ، وتعجيز النفس بالامر الشاقّ ، فتاطّئتُ عليها بالطاقة ، وارتديتُ فيها بالمُشاقه ، وقنعتُ من البحر بالوشل ، ومن التزيرة بالترر الاقلّ ، وقد تطفّل قبلي الوصليُّ والقرّاس ، وكلٌّ رمى ولم يُصِب واخطأ القياس ، ولسان الحال ينادي ، للرائح والغادي

كم عاشقٍ قد ماتَ حولَ خيامنا ... اسفاً ولم يَظفَرْ بكشف البُرقع . . .

وكفى بهذا دليلاً على طريقة الكاتب ولا نبتُّ الحكم في صحّة نسبة هذه المقامات لابن ماري . ويزيدنا ارتياباً فيها انّ مدار كثير منها على مسائل اسلامية كالفقه والحديث واسانيد قرآنيّة . هذا ما ظهر لنا من مطالعة هذه المقامات في نسخة مكتبة فينّا . ولم نجد فيها من البلاغة ما يُنسب الى مقامات ابن ماري ففيها يصحّ قول الصفديّ : لا اجاد ولا قارب الاجادة

امّا نسخة بغداد فلعلّها هي الصحيحة وقد جاء في مقدّمتها اسم ابن ماري صريحاً على خلاف نسخة فينّا التي قُدّم الاسم على الكتاب كأنّهُ من غير قلم مؤلّفها . فضلاً

عن ان المقامات فيها سبعٌ وعشرون بدلًا من ستين كما يروي الكتبة وكما تُرى في نسخة بغداد . وياليت احدًا من ادباء الحدباء يتولى نشرها بالطبع فيستحقّ شكر محبّي الآثار النصرانيّة

امّا شعر يحيى بن ماري فقد روى منه العماد الاصفهاني وابن العبري هذين البيتين (من البسيط) :

نَفرَتْ هندُ من طلائع شيبي واعترَتْها سآمةٌ من وجومي
هكذا عادةُ الشياطين يَنفرْ نَ اذا ما بَدَتْ نجومُ الرُّجومِ

وروى له العماد قولهُ في مديح (من الكامل) :

واذا نطقتُ فأنتَ لفظُ مقالتي واذا سكتُّ فانتَ سِرُّ خاطري

ومما يروى لهُ في صداقة الادباء الصالحين (من الكامل) :

عُدنا وعادَ الأُنسُ والأفراحُ واضاء في مِشكاتنا المصباحُ
وجرت منادمةٌ يفوح أريجها كالروض نَمَّ بعَرْفهِ الأرياحُ
وعلى العَفافِ قد انطوت أحوالُنا حبًّا بتقوى الله وهي رَباحُ
لا عيبَ فينا غير حُسنِ فعالنا جهرًا وهل يهوى الفسادَ صلاحُ
تأبى المحبَّةُ بالفسادِ وما لَها عمَّن تجلّى بالصَّلاح بَراحُ
كم عاشقٍ قد ذلَّ بعد فسادهِ والعزُّ في اهل التُّقى وضّاحُ

ومن ظريف ألغازه ما قالهُ في الجسم والروح (من الطويل) :

إثنانِ لم يُدرِكْ حقيقةَ واحدٍ سوى الله والثاني لَدى الحسِّ ظاهرُ
يُفارِقُ ذا هذا ويبقى وذا غليظٌ تراهُ في الوجودِ النَّواظرُ

وذاك قديمٌ في الحدوث وذا لـهُ حدوثٌ قريبٌ والمعاندُ كافرُ

ومثلهُ لغزهُ في القبر والنعش (من الطويل) :

رفيقـانِ منقولٌ وآخرُ ثابتٌ وكلٌّ لكلٍّ لازمٌ واجبُ النَّهرِ
يُحَمَّلُ هذا ساعةً ورفيقُهُ يُضَمَّنُ ما يبقى الى زمن الحَشرِ
يخفُّ بهذا الناسُ من كلِّ جانبٍ الى ذاك حتى يَغنموا غايةَ الأَجرِ
ويستودعوا ما أثقلوا منهُ ظهرَهم لآخرَ حتى يـأذنَ اللهُ بالأَمرِ

وكذلك ألغزَ في الليل والنهار (من الطويل) :

وضدَّينِ هذا مثلُ هـذا تعاقبـا وكم بهما عـدَّ الانامُ حقائبـا
فهذا بصيرٌ لا يَضِلُّ عن الهُدى وهذا عميٌّ ليس يُبصر ذاهبا
تَحَرَّكنا في ذا وفي ذا سكونُنا وطورًا نرى سعياً وطورًا تجانُبـا
وفي ذَيْنِ آياتٌ لاهـل النُّهى على جلالة ربِّ العَرْشِ تُبدي العجائبا

(الها بقية)

رحلة الى شمالي لبنان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

قد نشرت هذه المجلة الزاهرة (ص ٨١ــ٩٠ من السنة الحاضرة) تفاصيل رحلة قدس رئيس عـام رهبانيَّتنا اللبنانيَّة المارونيَّة الاباتي اغناطيوس داغر التُّوري الى رومة عاصمة الكثلكة ومـا لقيهُ هناك من الاكرام والاعزاز والثناء على فضائله